كتاب

«العرب لم يغزوا الأندلس»

«قراءة ناقدة»

• الغلاف •

تأليف: إغناسيو أولاغي

ترجمة: د. إسماعيل الأمين

عرض: د. عبد الله محمد ناصر السيف

هذا الكتاب ملخص لكتاب صدر في برشلونة تحت عنوان «الثورة الإسلامية في الغرب» للمؤرخ الأسباني إغناسيو أولاغي Ignacio Olague قام بترجمته وتلخيصه الدكتور إسماعيل الأمين وهو ينقل فكرة المؤرخ الأسباني أولاغي «أن العرب والمسلمين لم يفتحوا أسبانيا عسكريًا وأن التحول للإسلام في الأندلس لم يتم إلا عبر حركة الأفكار وتصارعها. ثم هيمنة... الفكرة القوة، التي شكلت عصب الحضارة العربية الإسلامية في ثلاثة أرباع عالم تلك الأيام» بحيث لقيت الدعوة الإسلامية مناخًا ملائمًا في أسبانيا التي سادت فيها الديانة الأريوسية خلال القرن الثامن الميلادي، فلم يجر الأسبانيون «إلا تعديلات طفيفة على معتقدهم وفكرهم وثقافتهم وعاداتهم، ليتحولوا إلى الإسلام» فأولاغي يرى أن الإسلام في أسبانيا انتشر ليس عن طريق الحملات العسكرية وإنما ثمرة لدعوة حملها العلماء والفقهاء.

يتكون الكتاب من مدخل وقسمين مع المراجع والفهرس العام .

القسم الأول : إشكالية تاريخية .

١ ـ ملحمة الفتوحات .

٢ ـ ملاحظات نقدية عامة .

٣ ـ مقدمات لفهم انتشار الإسلام .

القسم الثاني : الثورة الإسلامية في الغرب .

١ ـ أزمة مناخية .

٢ ـ مركب ديني .

٣ ـ تطور الفكر في إيبيريا :

المسيحية الثالوثية :

٤ ـ تطور الفكر في إيبيريا :

المسيحية الأحادية .

٥ ـ الأزمة الثورية .

٦ ـ حالة عامة تمهد للحضارة العربية ـ الإسلامية .

٧ ـ انتشار الإسلام والمقاومة المسيحية .

٨ ـ منشأ خرافة الغزو .

٩ ـ مسجد قرطبة .

وقد طبع الكتاب في حجم متوسط يحوي ٣٢١ صفحة ونشر في لندن من قبل دار رياض الريس للكتب والنشر، لسنة ١٩٩١م، ومن قراءة هذا الكتاب يتضح لنا بعض الملاحظات الآتية:

العنوان وضع بشكل غير صحيح، فالمفروض أن يذكر اسم المؤلف بعد ذكر عنوان الكتاب، ثم يذكر اسم المترجم لأن أصل الكتاب كما يقول المترجم صدر في برشلونة سنة ١٩٧٤م، تحت عنوان «الثورة الإسلامية في الغرب» لمؤلفه الأسباني إغناسيو أولاغي، مع أن هذا الكتاب صدر قبل ذلك في سنة ١٩٦٩م، تحت عنوان «العرب لم يغزوا قطعًا أسبانيا» Ignacio Olague, Les Arabes n'ont jamais envahi L'Espagne Bordeaux, 1969. PP. 343.

كما أن إطلاق كلمة العرب في العنوان غير دقيقة لأن الفتح الإسلامي للأندلس تم على يد العرب والبربر.

الكتاب بشكله الحالي ليس ترجمة ولا تأليفًا، فهو ملخص للكتاب الأساسي وتلخيصه أخل بمحتواه، فصاحب الترجمة الدكتور إسماعيل أمين يقول في صفحة ٩ ـ ١٠ «لذلك عمدنا بدلاً من ترجمته ـ إلى تبسيطه وتوضيحه وتنقيته وتلخيصه... ومع ذلك لم يتسم عملنا بالأمانة الخالصة... ففي كثير من الأحيان استخدمنا معلومات ومقدمات وكذلك منهج المؤلف للخلوص إلى نتائج مختلفة عن تلك التي خلص إليها المؤلف..».

لقد كان المفروض أن يكون المترجم أمينًا في ترجمته للكتاب الأصلي حتى ينقل الصورة التي أرادها المؤلف ليصبح عمله ذا قيمة أو يجعل كتابه تعليقا ومراجعة للكتاب الأصلي، أو يثبت ترجمة الكتاب الأصلي في المتن ويعلق بما يشاء عليه في الحاشية أسوة بما فعله الأمير شكيب أرسلان ـ رحمه الله ـ في كتاب «حاضر العالم الإسلامي».

وهكذا فإن هذا الكتاب لا يمكن اعتباره ترجمة ولا تعليقًا ولا مراجعة ولا تلخيصًا أمينًا للكتاب الأصلي، وإنما هو خليط من هذه الأشكال كلها.

وردت في هذا الكتاب أخطاء وعبارات قاسية خالية من الأدب عن الإسلام والرسول ﷺ تقشعر لها الأبدان، وإن كانت منقولة عن نصوص أخرى، كما أنها مليئة بالمغالطات والافتراءات والمفروض أن يتأدب المترجم ولا ينقلها وبخاصة وأنه لم يكن أمينًا في ترجمته ـ كما ذكر ذلك في المقدمة ـ كان بوسعه أن يعد لها أو يرد عليها ويعلق في الهامش لأنها تسيء إلى جميع المسلمين مثل ما ورد في الصفحات ٣٤، ١١٢، ١١٥، ١٣٨، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٦٩ـ٢٧١، ٢٧٦.

في هذا الكتاب تحيز واضح للمصادر اللاتينية والغربية والمؤلف يصرح بذلك ولا يقيم وزنًا للمصادر العربية الإسلامية في ص ٤١ يقول: «لقد كان من المجازفة الاعتماد على النصوص العربية لتحقيق عمل علمي عن أسبانيا في القرن الثامن... جميعها من النوع الخرافي الذي لا يحمل قيمة وثائقية...» «ورغم عيوب النصوص اللاتينية يجب الاعتماد عليها وإعطاؤها الأفضلية. أما النصوص العربية فلا تصلح إلا لتصحيح بعض المعلومات الواردة في النصوص اللاتينية» لذلك فهو يتناول المصادر والروايات التي تناسب فكرته، بينما يتجاهل الروايات التي تعارضها. كما كان يجب على المؤلف أن يناقش الأعمال العلمية الحديثة التي توصل إلى بعض الباحثين المحدثين التي تقول إن الأريوسية قد اختفت تمامًا من شبه الجزيرة الإيبيرية بعد تحول ريكاردو Recardo عنها سنة ٥٨٩م إلى المذهب الكاثوليكي[1]، وبخاصة أن المقولة الأساسية للكتاب تعتمد أصلاً على وجود الأريوسية في أسبانيا خلال القرن الثامن الميلادي.

يعتقد المؤلف في ص ٢٨ وما بعدها بأن عبور الجيش الإسلامي إلى أسبانيا أسطورة، لأن العرب والبربر ليس لديهم سفن أو خبرة بحرية تؤهلهم للعبور.

ثم يبني مناقشاته على افتراضات وهمية حيث يفترض أن بحارة قادس ربما ساعدوا طارق بن زياد في العبور لخبرتهم في هذا المجال، ويفترض لذلك وجود مائة رحلة لنقل جيش السبعة آلاف إذا كانت الظروف البحرية عادية، لكنه فجأة حول الافتراض إلى حقيقة ثم بنى عليه أسئلة أخرى مثل: لماذا أدى أبناء قادس هذه الخدمة إلى الذين جاءوا لإخضاعهم؟. وإذا كان طارق نجح في إخفاء نواياه وخدعهم، فلماذا ساعد هؤلاء البحارة موسى بن نصير على نقل الدعم المرسل لطارق بعد بضعة أشهر؟ من كل هذا يريد أن يدلل على عدم عبور الجيش الإسلامي لأسبانيا.

والواقع أن الافتراضات التي أثيرت لا تصمد أمام النقد التاريخي، لأن الراجح من تتبع الروايات التاريخية أن المسلمين كانت لهم سفنهم الخاصة وقد استخدموها كلها أو بعضها في فتح الأندلس، فاهتمام المسلمين بصناعة السفن كانت مبكرة، وكان الأسطول الإسلامي الذي اشترك في معركة ذات الصواري سنة ٣٤هـ يتكون من مائتي سفينة[٢]، وفي سنة ٤٦هـ وجه معاوية بن حديج الكندي ـ والي الشمال الأفريقي ـ أسطولاً إسلاميا عدته مائتا سفينة لفتح جزيرة صقلية[٣].

وعندما تولى حسان بن النعمان الغساني (٧٦ ـ ٨٦هـ) ولاية الشمال الأفريقي أسس دار الصناعة بتونس لصناعة السفن[٤]. ويروي ابن حيان أن موسى بن نصير «كان قد عمل من السفن عدة»[٥] كل هذا يدل على أن النشاط البحري كان مألوفًا عند المسلمين، وأن المسلمين كانت لهم سفنهم الخاصة وقد استخدموها كلها أو بعضها في فتح أسبانيا[٦]، وإذا كان ابن عذاري يشير إلى استعانة المسلمين ببعض مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس لنقل أول جيش طارق، فربما كان القصد منه هو التمويه على العدو حتى يتكامل تجمع جيش طارق على الجبل[٧].

الأخطاء في الروايات التاريخية:

وردت أخطاء تاريخية نشأت من عدم تثبت المؤلف من النصوص التاريخية حيث يبدو أن المؤلف وضع فكرة مسبقة ثم بحث عن الأدلة التي من شأنها أن تؤيدها، كما قام بعملية انتقائية تعتمد على بتر النصوص، فمن الأخطاء التاريخية:

ص ١٧ يقول: «عبر سبعة آلاف رجل عربي المضيق» والحقيقة أن جيش طارق بن زياد جله من البربر ولا يوجد فيه من العرب إلا العدد القليل[٨]، بل إن طارق بن زياد يعتبر بربريًا من قبيلة «نفزة»[٩]. يروي ابن حيان[١٠] أن طارق تجهز «في سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر» ويقول ابن خلدون[١١] إن العرب في جيش طارق نحو ثلاثمائة فقط[١٢]. بينما تذكر روايات أخرى أن عددهم كان أقل من ذلك بكثير.

وقد حرص موسى بن نصير على إشراك البربر في الفتح بسبب شعورهم بأنهم لم يقدموا للإسلام وللجهاد في سبيل الله مثل ما قدمه إخوانهم العرب.

ص ٢٢ يقول المؤلف عن ابن خلدون «وهو مؤرخ يرى فيه البعض (نصف عربي). فهو مثقف تونسي من أصل إيبيري..» وقد فات على المؤلف أن ابن خلدون عربي حضرمي النسب باعترافه هو إذ يقول في كتابه مقدمة ابن خلدون: «يقول العبد الفقير إلى رحمة ربه، الغني بلطفه عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي...»[١٣].

ص ٢٣ يقول المؤلف: «كان على الخليفة أن يحتل ويسيطر حتى يتمكن من أن يفرض على المجتمعات غير الإسلامية تغير واقعها..» والحقيقة أن الدافع للفتوحات الإسلامية ليس كما يقول المؤلف لفرض المعتقد الجديد، وإنما لإزالة

القوة التي تحول بين الناس وبين تبليغ الدعوة الإسلامية وبعد ذلك فهم أحرار «لا إكراه في الدين»[١٤] بنص القرآن الكريم.

ص ٢٤ ـ ٢٥ يقول: «في معرض الحديث عن البعثة الثانية إلى دمشق أيام الرسول ﷺ أشار لويس ساديلو في كتابه «تاريخ العرب» إلى قوتها العسكرية...» والواقع أنه لم يرسل إلى دمشق في عهد الرسول ﷺ أية قوة عسكرية كما يزعم المؤلف وإنما تم ذلك في عهد خلفائه الراشدين حيث تم فتح دمشق في عهد الخليفة عمر بن الخطاب[١٥]، رضي الله عنه.

ص ٢٦ يشكك المؤلف في فتح الهلال الخصيب ومصر، ويقول إن مصر كان بها ١٥ مليون قبطي في ذلك الوقت، ولو تم الغزو لاختنق العرب في هذه الكتلة البشرية الهائلة فكيف توصل إلى هذه الاحصائيات السكانية لمصر مع أن الحملة الفرنسية بقيادة نابليون التي استولت على مصر بعد ذلك بأكثر من عشرة قرون قدرت عدد سكان مصر من المسلمين والأقباط بمليوني شخص فقط، ومثل ذلك تقديرات المؤلف لعدد سكان أسبانيا بعشرة ملايين!

ص ٣١ يقول المؤلف: «ماردة يسكنها أكثر من نصف مليون نسمة» والحقيقة أن مؤلف الكتاب يقدم احصاءات غير دقيقة ولا تسندها الأدلة ففي ص ١٢، ٥٧، ٥٨ جعل سكان أسبانيا عشرة ملايين كما أسلفنا ثم في ص ٢٨٠ جعلهم بعد ذلك ١٥ مليونًا وفي ص ١٣٢ قدر عدد اليهود في أسبانيا ببضعة ملايين نسمة.

فإذا كان عدد سكان أسبانيا في القرن الأول الهجري خمسة عشر مليونًا فكم ينبغي أن يكون عدد السكان في أسبانيا بعد ثلاثة عشر قرنًا؟!

ص ٣٢، ٣٣ يرى المؤلف أنه من الصعوبة لدى العرب اجتياح مئات المدن

بسهولة بالغة، وبخاصة أن العرب «لا يعرفون لماذا جاءوا وما سيفعلون في إيبيريا». إن دوافع السلوك لدى المسلم تتأثر بالتطلع إلى ما عند الله، إلى الجزاء الأخروي، ولذلك فإن بعض المستشرقين يتعذر عليهم فهم دوافع هذا السلوك، هم يقيسون الأمور على نمط التاريخ الأوروبي عند تفسيرهم لحركة التاريخ الإسلامي رغم اختلاف طبيعة التاريخين[١٦]. فالفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية كان أمرًا طبيعيًّا حسب الخطة التي اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم بهدف نشر العقيدة الإسلامية، وذلك بأن تستمر موجة الفتح ما دامت فيها القوة على الاستمرار، ولما تم فتح شمال أفريقيا كان المد الإسلامي يحمل عناصر القوة الذاتية للاندفاع في اتجاهات أخرى فكان طبيعيا أن يعبر المسلمون إلى أسبانيا لنشر الإسلام والجهاد في سبيل الله[١٧].

ص ٣٨ أثناء حديث المؤلف عن عودة القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى المشرق ومع أنه يرى أن الفتح كله أسطورة إلا أنه في عرضه للروايات التاريخية يعرضها بصورة خاطئة فهو ينتقي من الروايات ما يناسب فكرته، ويتجاهل التي تعارضها، فهو يرى في عودة القائدين إلى الشام بسبب الخلاف بينهما «فذهبا إلى الشام للتقاضي وتركا إيبيريا دون سلطات» ولا يذكر أن ذلك تم بناء على استدعاء وإلحاح من الخليفة الوليد بن عبد الملك[١٨]. ثم إن موسى بن نصير قبل أن يعود إلى دمشق نظم حكومة الأندلس، وجعل حاضرتها إشبيلية، واختار لولايتها ابنه عبد العزيز يقول ابن القوطية «واستخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس وأسكنه إشبيلية»[١٩]. ويذكر المراكشي[٢٠] أن موسى «استخلف (على الأندلس ابنه) عبدالعزيز بن موسى، وترك معه من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسد الثغور وجهاد العدو». فهل بقيت إيبيريا دون سلطات؟!.

ص ٤٤، ٢٠٤ يشكك المؤلف في معركة بلاط الشهداء التي وقعت بين الجيش الإسلامي بقيادة عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي والجيش الفرنجي بقيادة شارل مارتل والتي انهزم فيها المسلمون، ويفترض أنها وقعت بين سكان جبال البيريني وشارل مارتل تحت أسماء عربية، كما يشكك في عروبة عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي مع أن المصادر[٢١] تذكر أنه من بني عك بن عدنان، يقول ابن حزم[٢٢] «بنو عك بن الدِّيت بن عدنان. . . منهم بنو أسلُم بن القيافة بن غافق، ومنهم كان أمير الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله . . . بن غافق».

ص ٥٦ يقول المؤلف «حسب الروايات العربية، وجدت القيادات العربية نفسها أقلية بالنسبة للمغامرين من شاميين وأقباط وبربر وحتى بيزنطيين» ما هي مصادر هذه الروايات العربية؟ لماذا لم يذكرها، فالجيش الإسلامي الذي اشترك في فتح أسبانيا كان من المسلمين بكل تأكيد. ثم يقول المؤلف في الصفحة نفسها «هكذا أسلم الإيبيريون على أيدي فاتحين في أكثريتهم غير مسلمين ولا يتكلمون العربية ذلك لأنه لم يكن بعد من الممكن في تلك المرحلة أن تكون قد تمت عملية صهر السوريين والأقباط والبربر في بوتقة الإسلام واللغة العربية». والواقع أن هذا الكلام مخالف للحقائق التاريخية ولو تتبع المؤلف فقط امتداد القبائل العربية في البلدان المفتوحة وانتشار الإسلام فيها لما قال هذا الكلام. ولو اطلع المؤلف على كتاب الدكتور صالح العلي (امتداد العرب في صدر الإسلام) (بيروت، ١٩٨٣م)، وكذلك كتاب الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس للدكتور عبد الواحد ذنون طه (بغداد، ١٩٨٢م) لاتضح له مدى امتداد القبائل العربية واستيطانها في المناطق المفتوحة موثقًا من المصادر. ثم كيف يتسنى لأناس من غير العرب ومن غير المسلمين أن ينشروا الإسلام بين الأسبان ؟! إن ما قاله المؤلف واضح التناقض ضعيف الحجة.

تساءل المؤلف لماذا اعتنق السكان في المقاطعات البيزنطية في آسيا ومصر وأفريقيا الشمالية وشبه جزيرة إيبيريا الإسلام؟ فهو يشكك في غزو هذه المناطق، ولكنه يعترف بامتداد النفوذ الإسلامي إلى هذه المناطق بقوة الفكرة الإسلامية نظرًا لامتداد الحضارة الإسلامية إلى هذه الأقاليم.

ص. ٦٠ مع أن المؤلف يعترف بالنصر الإسلامي على المستوى الفكري، إلا أنه يقول إن أبناء المدن لم يفتنوا بمدنية أولئك البدو الذين لم يكن لديهم غير السيف! وهذا أيضًا قول واضح التناقض، فكيف يمكن للحضارة الإسلامية أن تمتد في حين أن أهلها لم يكن لديهم غير السيف؟! ثم كيف يمكن أن يكون لهؤلاء حضارة يعترف المؤلف بامتدادها في مناطق كثيرة؟!

ص ٦٣ يقول المؤلف: «إن الإسلام الذي لم يكن عنده رهبان أو مبشرون انتشر عبر قنوات التجارة التي هي صلة الوصل الوحيدة بين البلدان المتباعدة. طبقة التجار وليست طبقة العسكريين هي التي نشرت الإسلام في العالمين الأفريقي والآسيوي.».

فالمؤلف يرى أن المد الإسلامي انتشر في هذه الأقطار عبر قنوات التجارة أما الفتوحات التي تمت عن طريق العمليات العسكرية فهي في نظر المؤلف مستحيلة، فكيف استطاع المؤلف أن يتجاهل المصادر الإسلامية وغيرها التي تحدثت عن هذه المعارك.

ص ٦٣ يستمر في تأييد وجهة نظره من أن الإسلام انتشر عن طريق التجارة فيصف الرسول ﷺ بأنه كان «قائد قافلة، وكان أبو بكر الخليفة الأول تاجر قماش، وكان عثمان الخليفة الثالث مصدر حبوب..» كان المفروض أن يذكر المؤلف المصادر التي اعتمد عليها، ولكن يبدو أن هدفه تأييد فكرته عن الفتوحات الإسلامية. فماذا عن تكون الدولة الإسلامية في المدينة؟ وماذا عن

جهادها ضد المشركين؟ ثم لماذا أغفل ذكر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الذي حطمت جيوشه أهم إمبراطوريتين في ذلك الوقت؟ ونحن نعترف بدور التجار في نشر الإسلام، ولكن دورهم هذا جاء متأخرًا، جاء بعد الفتوحات بقرون، وبعد أن استقر الحكم الإسلامي في مناطق كثيرة العالم في آسيا وأفريقيا وبعض بلدان أوروبا.

ص ١٩٥ أورد المؤلف معلومات تاريخية خاطئة عن موسى بن نصير لا تستند إلى حقائق تاريخية، وصلت إلى حد التشكيك في شخصية موسى بن نصير «شخصية خرافية» أو على الأقل «لا يكون موسى بن نصير قائدًا عسكريًا بل مبشرًا دينيًا»، مع العلم أن المصادر تذكر أن موسى بن نصير ولد في الشام ونشأ في بيت وثيق الصلة بالإدارة والجندية وتولى حكم أفريقية والمغرب سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م واستمرت ولايته لعشر سنوات حتى سنة ٩٥هـ/ ٧١٤م كانت السنوات الأربع هي التي شاهدت فتح الأندلس في عهد الخليفة الوليد ابن عبد الملك. ثم إن المؤلف لم يذكر لنا الأسباب التي تمنع موسى بن نصير من أن يكون قائدًا عسكريًا، لماذا لم يذكر الأدلة التي تؤيد كونه مبشرًا دينيًا؟!

ص ١٩٧ ـ ١٩٨ يورد معلومات خاطئة عن طارق بن زياد وفرضيات غير مقبولة علميًا قائلاً: «وفي هذه الحالة لا بد أن يكون قوطيًا من أصل جرماني» وهو يرى أن طارق بن زياد كان مخلصًا لأبناء ملك أسبانيا غيطشة الذي عينه حاكمًا على طنجة، فهو عبر إلى أسبانيا ليس للفتح الإسلامي وموفدًا من قبل موسى بن نصير وإنما «لدعم حزب الشرعية، الذي يتبنى في الوقت نفسه معتقده الديني» والواقع أن الباحث يتجاهل المصادر التي تؤكد أن طارق بن زياد كان بربريًا من قبيلة نفزة ـ كما أسلفنا ـ وكان مسلمًا مخلصًا للإسلام وقائدًا عسكريًا ممتازًا.

ص ١٩٩ وما بعدها يشكك المؤلف في معركة وادي لكه التي وقعت في سنة

٩٢هـ، ويرى أنها حتى لو حدثت فعلاً . . . «فلم يكن بوسع نتائجها أن تقدم للغزاة أي تفوق استراتيجي» مع أن هذه المعركة كانت فاصلة فمن نتائجها تحطم قوة الجيش القوطي وعندها أصبحت أسبانيا كلها مكشوفة أمام الجيش الإسلامي. كما غنم المسلمون خيولاً كثيرة بعد هذه المعركة جعلت المسلمين يتحركون بسرعة بعد أن أصبح معظم الجيش الإسلامي من الخيالة[٢٥].

ص ٢١٠ ـ ٢١١ ينتقد المؤلف المؤرخين التقليديين الذي جعلوا عبد الرحمن الداخل من ذرية خلفاء دمشق قائلاً: «لم يكن عبد الرحمن أمويًا ولا ساميًا ولا بربريًا. هذا ما يؤكده السياق التاريخي. تمامًا كما يؤكد أن الغزو العربي لم يحدث مطلقًا».

أعتقد أن الباحث لو اطلع جيدًا على المصادر، لما أتعب نفسه في مناقشة مسألة أصل عبد الرحمن الداخل ومحاولة إثبات جرمانيته، فالمصادر[٢٦] تجمع على أن عبد الرحمن الداخل من سلالة الأمويين، حيث تذكر أنه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم.

ص ٢٣٤ يقول المؤلف: «انتشرت الحضارة العربية ـ الإسلامية عن طريق التبشير التجاري والعلاقات بين المثقفين، ونشر الكتب، ونشاط الفقهاء وقوة المفاهيم الجديدة ونفوذها» مع أنه في ص ٦٣ يرى بأن قنوات التجارة هي التي انتشر عن طريقها الإسلام لأنه لا يوجد مبشرون، وهكذا وقع المؤلف في التناقض مرة أخرى.

ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ يؤكد الباحث أن الغزو لم يحدث، إنما تسرب الإسلام إلى أسبانيا منذ بداية القرن السابع حيث «تسرب، ثم تأصل، ثم ازدهر، ثم نضج بشكل يتلاءم مع دينامية الحركة الفكرية» لذلك يرى المؤلف بأن إسلام خلفاء قرطبة تم في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)، ولكنه لا يقدم أية أدلة

موثقة من المصادر. بيد أن افتراضه السابق بـأنهم ليسوا عربًا وإنما هم جرمانيون هو الذي أدى إلى هذه النتيجة الغريبة التي لم تقم على حجة موثقة، بل هي على العكس تناقض الحقائق التاريخية الثابتة لدى المؤرخين في الشرق وفي الغرب.

ص ٢٦١ يصف المؤلف الأمير الحكم الأول بأنـه طاغية متنـور، ويعلل ثورة الربـض بأنها بسبب المبالغـات في تطبيق قانون الضرائب، مـع أن المصادر[٢٧] تعلل الثورة بسبـب سخط بعض الفقهاء من تصرفات الحكـم، وفي هذا الشأن يقول ابن حزم[٢٨] إنه «قتل الفقهاء والخيـار، وخصى عددًا من ذوي الجمال من أهل قرطبة. . . فقـام الناس عليه منكرين لما أبدى، فأوقع بهم الـوقعة المشهورة سنة ٢٠٢» ويقول ابن القوطية[٢٩] بأن سبب ذلك صلب بعض الفقهاء.

ص ٢٦١ يقـول أيضًـا عن الحكم الأول: «وقـد وصفه المؤرخـون المسلمـون بـالحيـوي بينما الكـافـر. كـان محاطًـا بمسيحيين لا يقلـون عنـه ريبـة في أمـور الدين. .» من هؤلاء المؤرخون الذي وصفوه بالكفر؟ لقد ذكر المؤرخون[٣٠] شدة بأس الحكم وحزمه وقوته في مواجهة خصومه ومعارضيه، حتى إنه «هدم الديار والمساجد»[٣١] عندما ثـار عليه أهل الربض في سنة ٢٠٢هـ. ومع ذلك ذكروا ندمه على أفعاله وتوبتـه قبل موته، يقول ابن القوطية[٣٢] «وطاولت الحكم بعد هذا علة صحبته سبعة أعوام، مات في آخرهـا على ندم وتوبة مما جرى على يده» ويقول صاحب كتاب الحلة السّيراء[٣٣] «فمات على توبة من ذنوبه وندم على ما اقترف» ويقول ابن عذاري[٣٤] «ولما دنت وفاته عتب نفسه فيما تقدم منه عتابًا، وتاب إلى الله متابًا».

ص ٢٢٩ وما بعدهـا يشكك المؤلف في بناء مسجد قرطبـة من قبل أمراء بني أمية في الأندلس وبخـاصة عبد الرحمن الداخل، ويخلص بعـد عدة افتراضات إلى الاعتقاد بأن هذا المسجـد كان معبدًا أريوسيًّـا في القرن الخامس أو السادس

الميلادي، وفي القرن السابع جرى تحويل هذا المعبد إلى كنيسة القديس شنت بنجنت (st. vincent) ثم أعيد معبدًا أريوسيًّا بعد انتصار للثورة سنة ٧١١م / ٩٢هـ. وفي منتصف القرن التاسع أصبح هذا المبنى القرطبي مسجدًا نتيجة لسياسة الأسلمة التي اتبعها الأمير عبد الرحمن الثاني. والشيء اللافت للنظر أن الباحث يلجأ للفرضيات على الرغم من وجود التفصيلات في المصادر العربية عن بناء مسجد قرطبة فتذكر المصادر[٣٥] أن عبد الرحمن الداخل أنشأ في ١٦٩هـ/ ٧٨٥م المسجد الأموي الجامع بقرطبة، لكنه توفي قبل إتمامه فأتمه ولده هشام، وزاد فيه من بعده أمراء بني أمية في الأندلس وخلفائهم حتى أصبح أعظم المساجد في الأندلس وأجملها. ثم إن الأريوسية التي يبالغ المؤلف في الحديث عنها كانت قد اختفت من أسبانيا بعد تحول الملك ريكاردو Recardo إلى الكاثوليكية في ٥٨٩م ـ كما أسلفنا ـ. ولذلك فإنه غريب جدًّا زعم المؤلف أن تكون كنيسة القديس شنت بنجنت قد تحولت إلى معبد أريوسي بعد هذا التاريخ بفترة تزيد على (١٢٠) عام!!

الأخطاء المنهجية :

لا شك أن المنهجية المتبعة في هذا الكتاب تشتمل على خلل كبير، فاستنتاجات المؤلف تبنى على افتراضات وهمية ثم يحولها إلى حقائق ويبني عليها دون دليل، ويبدو أن حرص المؤلف على إثبات فكرته التي تقول بعدم فتح الأندلس عسكريا من قبل المسلمين، جعله يقوم بعملية انتقائية للروايات التاريخية، الأمر الذي يتنافى مع مبادئ البحث العلمي المعروفة.

فمن الأخطاء المنهجية :

ص ٢٨ ـ ٢٩ افترض المؤلف في عملية عبور طارق بن زياد إلى الأندلس أن بحارة قادس ساعدوه، كما افترض وجود مائة رحلة لنقل الجنود، ثم عد ذلك

حقيقة مسلماً بها بدلاً من الافتراض السابق وبنى عليها أسئلة واستنتاجات أخرى. كما جعل عنوان عبور المسلمين إلى الأندلس «أسطورة عبور جبل طارق» وهذا يدل على أنه وضع فكرة مسبقة وصار يبحث عن الأدلة لتأييدها.

ص ٥٣ افترض أن الجيش الإسلامي الفاتح أتى من الحجاز، لذلك خلص من تلك الفرضية إلى نتائج خاطئة في ص ٥٤ فهو يقول في ص ٥٣ «اقتنع معظم المؤرخين بأن فتح إيبيريا قد تم على يد سكان الحجاز ولم يفتح أي واحد منهم خريطة ليقدر المسافة أو يدرس العقبات. ولم يتساءل أحد منهم حول الشروط المادية لرحلة من هذا النوع». فمن هم هؤلاء المؤرخون الذين أشار إليهم المؤلف؟. ثم إن هذه الفرضية تتناقض مع أقوال المؤلف الأخرى في ص ٥٦.

ص ١٠٤، ١٠٦ ربط المؤلف بين أزمة المناخ (الجفاف) وانتشار الإسلام فهو يرى أن أزمة المناخ في الجزيرة العربية قد ساعدت الدعوة الإسلامية على الانتشار وتجنيد البدو لغزو المدينة ثم مكة، ثم أراضي مروية مجاورة... إلخ فهل تم غزو المدينة من قبل المسلمين؟!

ص ٨٨ افترض المؤلف عدم مساعدة الإيبيريين للمسلمين في الفتح ثم جعلها بعد ذلك مقدمة واستنتج منها. وهذا يتناقض مع قوله (ص ٢٨ ـ ٢٩) عن مساعدة بحارة قادس طارق بن زياد في العبور إلى الأندلس!

ص ١٩٠ مقولة (لم يغز العرب الأندلس) أصبحت الآن حقيقة بدلاً من الافتراض السابق. يقول المؤلف: «أما نحن فيمكننا متابعة فصول هذه الخرافة عند المسلمين كما عند المسيحيين من خلال فهمنا وتقديرنا للمفاهيم التي رسخت لدى شعوب إيبيريا الفكرة القوة التي تتشكل منها الحضارة العربية الإسلامية..» وفي ص ٢٤٧ يقول: رغم معرفتنا الأكيدة بأن هذا الغزو لم يحصل... إلخ».

وهكذا فالافتراضات غير المدعومة بالأدلة في هذا الكتاب كثيرة مثل: ص ١٩٧ الافتراض بأن طارق بن زياد قوطي من أصل جرماني، ص ٢٠٤ الافتراض بعدم عروبة عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، ويفترض أنه من سكان جبال البيريني.

ص ٢١٠ ـ ٢١١ افتراض عن جرمانية عبد الرحمن الداخل!

أسماء الأعلام والأماكن والمصطلحات :

وردت في هذا الكتاب بعض الأخطاء ولا سيما في الأسماء، سواء الأندلسية منها أو غيرها مثل:

* ص ١٦ عبد الله بن سعد جعله سعيدًا.
* ص ١٧ حسان بن النعمان جعله حسنًا.
* ص ٢٢ ابن عذاري جعله العذاري.
* ص ٢٣ النفود جعلها نفودًا.
* ص ٢٣٥ المرية جعلة المارية.

كما أنه أورد بعض المصطلحات الخاطئة مثل ص ١٨ بإطلاق تسمية (الثيولوجي المسلم) على الفقيه عبد الملك بن حبيب.

والخلاصة أن هذا الكتاب مليء بالأخطاء التاريخية والمنهجية، فهناك خلل في المنهج التاريخي وعيوب في المناقشة وتتبع الروايات التاريخية مما قاد إلى استنتاجات خاطئة.

الهوامش

(١) انظر مثلا كتاب :

E.A Thompson, the Goths in spain, Oxford, 1969.

وأيضًا تعليق :

James T. Monroe, Book Reviews, International Journal of Middle East Studies, PP. 374 - 348.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، ١٩٦١م، جـ ٤، ص ٢٨٨ وما بعدها.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، باريس، ١٩٤٨م، جـ ١، ص ١٦ ـ ١٧.

(٤) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس، ١٩٦٧م، ص ١٥، ٣٥.

(٥) المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨م، جـ١، ص ٢٣٢.

(٦) عبدالرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، بيروت، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص ٤٩، سالم والعبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، بيروت، ١٩٦٩م، ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٧) ابن عذاري، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٦.

(٨) ابن عذاري، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٦، ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٧م، جـ ٥. ص ٣٢٠، المقري، المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٣١ (رواية ابن حيان).

(٩) المقري، نفح الطيب، جـ ١، ص ٢٥٤، ابن عذاري، البيان المغرب، جـ ٢، ص ٧.

(١٠) المقري، نفح الطيب، جـ ١، ص ٢٣١.

(١١) ابن خلدون، العبر، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ، جـ ٤، ص ١٥٠.

(١٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٢٧٦، المقري، نفح الطيب، جـ ١، ص ٢٣٩، ابـن خلكـان، وفيـات الأعيـان، بـيروت، ١٩٧٧م، جـ ٥، ص ٣٢٠.

(١٣) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ، ص ٥.

(١٤) سورة البقرة، آية ٢٥٦.

(١٥) اليعقـوبي، تاريـخ اليعقوبي، بيروت، ١٩٧٠م، جـ ٢، ص ١٤٠، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ ٣، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠.

(١٦) أكرم ضياء العمري، المجتمع المدني في عهد النبوة، خصائصه وتنظيماته الأولى، المدينة المنورة، ١٤٠٣هـ، ص ٢٠.

(١٧) الحجي، المرجع السابق، ص ٤٣.

(١٨) ابن القـوطيـة، تـاريخ افتتـاح الأندلس، تحقيـق إبراهيم الإبيـاري، القـاهـرة، ١٤٠٢هـ، ص ٣٦. المقري، نفح الطيب، جـ ١، ص ٢٧٥، ص ٢٨٠ (رواية الرازي). ابن خلدون، العبر، جـ ٤، ص ١٥١، النويري، نهاية الأرب، تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٤٠٣هـ، جـ ٢٤، ب ص ٥١.

(١٩) ابن القوطية، المصدر السابق، ص ٣٦.

(٢٠) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغـرب، تحقيق محمد العريان، القـاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، ص ٣٤.

(٢١) ابن حـزم، جمهـرة أنسـاب العـرب، تحقيق عبـد السـلام هـارون، القـاهـرة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، ص ٣٢٩، وانظر أيضًا: ابن القـوطية، المصدر السابق، ص ٣٩، ابن عبد الحكم، فتـوح مصر، ص ٢٩٢، المراكشي، المعجب، ص ٣٦، ٣٧.

(٢٢) ابن حزم، المصدر السابق، ص ٣٢٩.

(٢٣) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٥، ص ٣١٨ وما بعدها، ابن عذاري، البيان المغرب، جـ ١، ص ٣٩ ـ ٤١، ابن خلدون، العبر، جـ ٤، ص ٢٣٩.

(٢٤) مجهـول المؤلف، أخبار مجمـوعـة، مـدريد، ١٨٦٧م، ص ١٠، المقـري، نفح الطيب، جـ ١، ص ٢٦١.

(٢٥) انظـر مثلاً: ابـن حزم، جمهـرة أنسـاب العرب، ص ٩٢ ـ ٩٣، ابن عـذاري،

المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٧، ابن القوطية، المصدر السابق، ص ٤٧، المراكشي، المعجب، ص ٤٠، المقري، نفح الطيب، جـ ٣، ص ٢٧، ابن خلدون، العبر، جـ ٤، ص ١٥٥.

(٢٦) ابن القوطية، المصدر السابق، ص ٦٩، ابن حزم، المصدر السابق، ص ٩٦. ابن خلدون، العبر، جـ٤، ص ١٦١.

(٢٧) ابن حزم، المصدر السابق ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٢٨) ابن القوطية، المصدر السابق، ص ٦٩.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٦٤ وما بعدها، ابن حزم، المصدر السابق، ص ٩٥ ـ ٩٦، المراكشي، المعجب، ص ٤٤ وما بعدها.

(٣٠) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٩٦.

(٣١) ابن القوطية، المصدر السابق، ص ٧٢.

(٣٢) ابن الأبار، الحلة السّيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣م، جـ١، ص٤٦.

(٣٣) ابن عذاري، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٨٠.

(٣٤) المقري، نفح الطيب، جـ١، ص ٥٦٠ ـ ٥٦٣، ابن خلدون، العبر، جـ٤، ص ١٦٠، وللمزيد عن مسجد قرطبة، انظر: سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، ١٩٨١م، ص ٣٧٧ ـ ٤٠٠، الدكتور عبد العزيز الدولاتي، مسجد قرطبة وقصر الحمراء، تونس، ١٩٧٧م.